مقرر الأدب في العصر الجاهلي

من كتاب ١-(العصر الجاهلي د.شوقي ضيف)٢- (الأدب الجاهلي د. هاشم مناع)

رقم المقرر (٥٠٣١٩١-٥٠) انتساب

د . سعدى طفيف مبارك الدعدي

الأستاذالمشارك بكلية اللغة العربية

جامعة أم القرى

للتواصل : جوال (٠٥٠٧٥٥٥٢٤)

تطور مدلول كلمة (أدب)

إن مفهوم كلمة (أدب) بالمعنى المعروف عليه اليوم يعني (الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً) .

وقد اختلفت كلمة " أدب " وتطورت بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من البداوة إلى الحضارة ، فاتخذت الكلمة عدة مدلولات بتعاقب العصور والبيئات ، كالآتي.

في العصر الجاهلي :

إذا نقبنا عن كلمة " أدب " في العصر الجاهلي لم نجدها تجري على ألسنة الشعراء، إنما نجد كلمة ((آدب)) على وزن ((فاعل)) بمعنى الداعي إلى الطعام. فقد جاء على لسان طرفة بن العبد :

نحنُ في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

وربما استخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بالمعنى الخلقي غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن .

ويرجح الدكتور شوقي ضيف أن هذه الكلمة انتقلت من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم .

عصر صدر الإسلام :

نجد هذه الكلمة تستخدم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي. ففي الحديث النبوي ((أدبني ربّي فأحسن تأديبي)).

ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغنوي في المعنى نفسه إذ يقول:

لا يُمنَعُ الناس منّي ما أردْتُ ولا أعطيهمُ ما أرادوا حسن ذا أدبا

العصر الأموي :

ولا نمضي في عصر بني أمية حتى نجد الكلمة تدور في معنيين :

أ/ معنى تهذيبي ، ويراد به تربية النفس وتدريبها على الأخلاق الحميدة والسجايا النبيلة.

ب/ معنى تعليمي:

وهو معنى جديد ، ظهر بسبب وجود طائفة من المعلمين سمّوا " بالمؤدبين " وهم الذين كانوا يعلمون أبناء الخلفاء ألوان المعرفة والثقافة العربية، ويلقنونهم الشعر والخطب والأخبار والأنساب وأيام العرب في الجاهلية والإسلام .

كما أصبحت كلمة " أدب " مقابلة كلمة " علم " الذي كان يطلق حينئذ على علوم الشريعة الإسلامية ، وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي والتفسير.

العصر العباسي :

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان في استخدام الكلمة. فقد سمّى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروباً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم " الأدب الصغير " و " الأدب الكبير " .

وفي هذه الأزمنة أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانت كلمة أدب تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سمُّوها كتب أدب مثل:

١- " البيان والتبين " للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وهو يجمع ألواناً من الأخبار ، والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية .

٢- " الكامل في اللغة والأدب " للمبرد (ت ٢٨٥هـ) وقد وجه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد . وضم الكتاب صوراً راقية من الرسائل النثرية .

٣- ومما ألّف في الأدب بهذا المعنى كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة .

٤- والعقد الفريد لابن عبد ربه .

٥- زهر الآداب للحصري .

ولم تقف الكلمة عند المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النظم والنثر ، بل اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من الجانبين الاجتماعي والثقافي .

القرن الرابع :

نجد هذه الكلمة أخذت هذا المعنى الواسع عند إخوان الصفا ، فقد دارت عندهم في التعبير عن علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار ، إلى جانب علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات .

القرن الثامن :

ولا نصل إلى القرن الثامن ، زمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهي تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال في مقدمته : ((الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف)).

في العصر الحديث :

نجد الكلمة تدل على معنيين :

أ/ معنى عام : يطلق على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعة وأسلوبه ، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً .

ب/ معنى خاص : وهو الأدب الخالص الذي لا يراد به مجرد التعبير عن معنى من المعاني، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلا بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في الشعر وفنون النثر من الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

مدلول لفظة " جاهلية "

ينبغي أن نعرف أن كلمة " الجاهلية " التي أطلقت على العصر الجاهلي ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه ، لأن العرب لم يكونوا قبل الإسلام جاهلين غير عالمين، فقد كانت عندهم علوم ومعارف عديدة ، وإنما نجد كلمة "جاهلية" مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والحمية والأخذ بالثأر .وقد دارت هذه الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى .

ففي قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة البقرة(٦٧)] .

وفي قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف(١٩٩)] .

وفي الحديث النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر الغفاري ، وقد عيَّر رجلاً بأمه : " إنك امرؤٌ فيك جاهلية " .

وجاء في الشعر الجاهلي من معلقة عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـــــن أحـــــدٌ علينـــــا فنجهـــــلُ فـــــوق جهـــــلِ الجاهلينـــــا

وواضح في هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق،وقد أخذت تطلق على العصر السابق للإسلام مباشرة، بكل ما فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرَّمه الدين الحنيف من موبقات .

****

تحديد العصر الجاهلي

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة. ولكن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى أكثر من قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهي الحقبة التي تكاملت فيها اللغة العربية بكل خصائصها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي. ولاحظ الجاحظ بوضوح ذلك : إذ قال : ((أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهَّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام)) .

وهو تحديد دقيق ؛ لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول يشوبه الغموض . ومن أجل ذلك نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة، أي مائة وخمسين عام قبل الإسلام . أو على أقصى تقدير بنحو قرنين من الزمان وهي الفترة التي تقوم عليها دراستنا، ودراسة ما صدر خلالها من شعر ونثر .

أما ما قبل ذلك من الزمن فمن المؤرخين من يسمِّيها الجاهلة الأولى ، وهي فترة موغلة في القدم تخرج عن هذا العصر الذي نقوم بدراسته والذي ورثنا عنه الشعر العربي الجاهلي واللغة العربية، وتكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله .

****

أولية الأدب العربي وبداياته (مراحل الشعر الجاهلي)

اتجه النقاد عدة اتجاهات في محاولتهم معرفة الصورة الأولية للشعر العربي فجعلوه يمر بمراحل :

المرحلة الأولى :

أشار الباحثون والنقاد هنا إلى أن الشعر العربي بدأ في صورة مقطعات قصيرة وأبيات قليلة يرتجلها الشاعر في مناسبات طارئة يعبر عن عواطف سريعة مؤقتة. ثم قضت طبيعة التطور أن يطيل الشعراء قصائدهم حسب الموضوعات والمناسبات، مثلما وجد في شعر المُهَلْهِل في حرب البسوس. وفي ذلك يقول ابن سلام الجحمي : ((ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا أبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد وطوَّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد

مناف)) . فالشعر في هذه المرحلة كان لزوم الحاجة والموقف ، فكان الشاعر يقوم بالتعبير عما يريده، وهذا لا يستغرق إلاّ أبيات قليلة .

المرحلة الثانية :

يرى هنا الباحثون أن العرب قد بدأ شعرهم بالرجز ، حيث يتفق هذا مع طبيعتهم إذ ربطوا بين ذلك وبين ما كان من حداء الإبل في رحلاتهم الطويلة . فاتجهوا إلى نظم الأشعار في رحلاتهم والتي كانت تتجه إلى المقطوعات . وعليه يمكن القول إن الشعر العربي في هذه المرحلة نشأ مع رغبة العربي في الغناء، وفي التعبير عن أحاسيسه ، فنشأة الغناء تكاد تكون توءماً لنشأة الشعر .

المرحلة الثالثة :

تطور الأمر في هذه المرحلة إلى أوزان الشعر، واستطاع الشاعر أن يصور خوالج نفسه،ويرسم أحاسيسه دون القصد إلى الغناء، يقول ابن رشيق في توضيح ذلك :

((وكان الكلام منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها،وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز نفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها إلى حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به)).

****

تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربي زعموا أن هذا التاريخ يمكن تقسيمه إلى خمسة عصور أساسية :

١- عصر الجاهلية أو عصر ما قبل الإسلام .

٢- العصر الإسلامي، ويقسمونه قسمين :

أ- عصر صدر الإسلام، وهو العصر الذي يبدأ بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

ب-العصر الأموي: ويبدأ بقيام الدولة الأموية بكل ما فيها من أحداث وفتوح ، وينتهي بسقوطها عام ١٣٢هـ .

٣- العصر العباسي ، ويقسم إلى :

أ- عصر عباسي أول ، يبدأ بقيام الدولة العباسية ، وينتهي بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢هـ .

ب-عصر عباسي ثانٍ ، ينتهي باستيلاء البويهين على بغداد سنة ٣٣٤هـ.

٤- عصر الدول والإمارات :

وهو العصر الذي تفككت فيه أوصال الخلافة العباسية، وظهرت فيها الإمارات والخلافات مثل: إمارة الدولة الحمدانية في حلب، وإمارة الفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين في مصر . وملوك الطوائف ومن خلفوهم في الأندلس .

٥- العصر الحديث :

وهو الفترة التي تبدأ بنهاية هذه الدويلات السابقة ، وتمتد إلى العصر الحديث ، ويقسم بدوره إلى أجزاء على حسب أجزاء البلاد العربية .

****

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب .وهم عمادها وقوامها، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالي، وهم عتقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم .

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشرف. وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم، مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغني بينهم يفضل على الفقير، وكثيراً ما كان يذبح إبله في سنين القحط، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكُثبان والجبال، ليهتدي إليهم التائهون والضالون في الفيافي ، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم، ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران ، وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين، يقول عوف بن الأحوص :

ومستنبح يخشى القواء ودونه ... من الليل بابا ظلمة وستورها

رفعت له نارى فلما اهتدى بها ... زجرت كلابي أن يهر عقورها

فلا تسأليني واسألى عن خليقتي ... إذا رد عافى القدر من يستعيرها

ترى أن قدري لا تزال كأنها ... لذى الفروة المقرور أم يزورها

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم.

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى . إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها. وكل شيء إلا الهوان، وكان

أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه ، وكان نازلاً معها عنده ، فاستل سيفه وقتله، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم.

وللشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي.

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي ، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان ، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيريّ. وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم ، ويقول طرفة في معلقته :

وما زال تشرابى الخمور ولذتي وبيعى وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها .

****

المرأة في الحياة الجاهلية

كان للمرأة مكانتها في المجتمع الجاهلي . وقد كان هناك نوعان من النساء إماء وحرات.

الإماء :

كانت الإماء كثيرات،وكان منهنَّ قينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين، كما كان منهن جوارٍ يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام، وكن في منزلة وضيعة، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد .

الحـــرات :

كانت الحرة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجواري. وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية، فكن يخترن أزواجهن، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن. وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن.

وكانوا يصحبونهن معهم في الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدون من أناشيد حماسية حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حاراً حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع في هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مشهورة ، وكن يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية، وتقول أم عمرو بنت وقدان في أخ لها قتل وقد فكرت عشيرتها في قبول ديته :

إن أنـــتم لم تطلبـــوا بـــأخيكم ... فـــذروا الـــسلاح ووحـــشوا بـــالأبرق

وخـــذوا المكاحـــل والمجاســـد والبـــسوا ... نقـــب النـــساء فبـــئس رهـــط المرهـــق

فهم إن لم يثأروا لأخيها حق عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق، فيتزيوا بزي النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن .

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتـضحى فتيـت المسك فـوق فراشـها ... نـؤوم الـضحى لم تنْتطـق عـن تفـضل

ويقول المنخل اليشكري في فتاته :

الكاعـــب الحـــسناء تـــر ... فـــل في الـــدمقس وفي الحريـــر

ولم يقفوا عند جمالها الجسدي، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوي وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة، على نحو ما يقول الشنفرى في زوجته أميمة :

لقـد أعجبـتني – لا سـقوطا – قناعهـا ... إذا مـــا مـــشت ولا بـــذات تلفـــت

تبيت – بعيـد النـوم – تهـدى غبوقهـا ... لجاراتهـــا إذا الهديـــة قلـــت

تحـــل بمنجـــاة مـــن اللـــوم بيتهـــا ... إذا مـــا بيـــوت بالمذمـــة حلـــت

كـــأن لهـــا في الأرض نـــسيا تقـــصه علـــى أمهـــا وإن تكلمـــك تبلـــت

وهي كريمة مؤثرة تؤثر جارتها في الجدب بغبوق اللبن ، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها،وهي شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها. وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها .

وقفة :

س) ما رأيك فيما يذهب إليه البعض من أن المرأة العربية منذ الجاهلية كانت مهملة مهدرة الحقوق ؟!

المرأة لم تكن في الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية، فحرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها .

فينبغي أن لا نفهم أن المرأة كانت مهدرة الحقوق في الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى : {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً في الجاهلية، وكانوا يعدون ذلك سبة ما بعدها سبة .

****

الحياة الحربية

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون، لا يفرغون من دم إلا إلى دم، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم. ولم يكن لأي فرد الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها، فما هي إلا أن يقتل أحد منهم، فإذا سيوف عشيرته مسلولة، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته ، تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين

القبيلة المعادية، وتتوار ثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل. أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سبة وعاراً، وفي ذلك يقول عبد العزى الطائي :

إذا ما طلبنا تبْلنا عند معشر أبينا حلاب الدر أو نشرب الدما

فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها. فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم . فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً .

وكانت حروبهم تبدأ صغيرة ضعيفة، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره، فالجميع يصطلون بنارها .

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً. فإذا جنّهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح. وأيامهم وحروبهم كثيرة، وهي تدور في كتب الأدب والتاريخ ، وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم عين أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ، ومثل يوم ذي قار وكان بين بكر والفرس، ويوم شعب جبلة وكان بين عبس وأحلافها من بني عامر وذبيان وأحلافها من تميم. وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب – وكان قد طغى واشتد بغيه – على ناقة للبسوس خالة جساس بن مرة سيد بني بكر، إذ رمى ضرعها بسهم ، فاختلط لبنها بدمها. ولم علم جساس بما حدث ثار لكرامته، وسنحت له فرصة من كليب فقتله. ودارت رحى حرب طاحنة ظلت – فيما يقال – أربعين سنة، ولما أنهكت الحرب الفريقين لجأ إلى الحارث بن عمرو الكندى، فأصلح بينهما ، ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التلغبي المهلهل أخى كليب، وألفت عنه قصة شعبية باسم ((الزير سالم)) .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي ،وكان السبب في نشوبها سباقاً في رهان بين الفرسين. فسميت باسميهما وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان: قيس بن زهير وحذيفة بن بدر. وأوشك داحس أن يفوز، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له: فاعترضه ونفره ،

فعدل عن الطريق، وبذلك سبقته الغبراء. وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطلب الرهان المضروب، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره .وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّى ، فتحملا ديات القتلى. وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين .

****

المعيشة في العصر الجاهلي

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ، فقد تفاوتت أشكال المعيشة والحرف بتفاوت البيئات الجاهلية فعرفت عندهم بعض النشاطات :

١- الزراعة وكانت منتشرة في يثرب وخيبر والطائف .

٢- التجارة : فقد عاش أهل مكة على التجارة، إذ كانوا يحملون عروضها وسلعها بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط ،وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً في طرق معلومة، فمكة كانت مدينة تجارية عظيمة.

٣- رعي الأغنام : فقد كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفوذ وبوادي الشام والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعي الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ،ولا يفضلون الزراعة والصناعة بل يحتقرونها ، فلا حياة مثل حياة البساطة والحرية، وهي حياة كان غذاؤهم فيها بسيطا ، فقليل من الشعير يكفيهم، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، ولكن لا نظن أن هذه الحياة كانت سهلة، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف .

٤- السلب والنهب : تحولت الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم، إذ يتخذونها وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف ، فهم دائماً مفزعون حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم، بل ظل يتوجس خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان، فأنسهم في التفرد في الفلوات والقفار لا يضلون فيها قصدهم ،كما لا تضل الشمس قصدها.

٥- صيد الوحش والحيوان : كان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثير منهم ، فكانوا يدربون الكلاب ويضرونها تضرية، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفي شعرهم قطع

كثيرة شعرية تصف المعارك التي كانت تنشب بينها وبين بقرهم الوحشي، ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم، إنما هم فقرائهم ومعوزيهم . لذا تأتي في المرتبة الثانية بعد الغزو والسلب.

****

الأسواق العربية في الأدب العربي

كان للعرب بعض الأسواق التي يقيمونها ، ومن أكبر الأسواق عندهم سوق عكاظ. وكانوا يقيمونه في نجد بالقرب من عرفات من منتصف ذي القعدة إلى نهايته .

دور سوق عكاظ ومهامها :

١- لم تكن سوق عكاظ سوق تجارة فحسب ، بل كانت سوقا للخطابة والشعر أيضا. وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قسّ بن ساعدة وهو يخطب في الناس. وكانت تقام للنابغة فيها قبّة، ويفد عليه الشعراء، يعرضون شعرهم، فمن أشاد به طار اسمه في الآفاق .

٢- كثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع فيها الديات .

٣- كثيراً ما كانت تقوم فيها المفاخرات والمنافرات، وعرف غير واحد بأن الناس يحتكمون إليه فيها.

٤- كانت سوق عكاظ أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، يجتمعون فيه وينظرون في خصوماتهم ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون .

ومن أسواق قريش أيضا ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يمرون فيها ويشترون ويبيعون من أهمها دومة الجندل في نجد ، وسوق خيبر والحيرة باليمامة، وسوق حضرموت وصنعاء وعدن ونجران، ولكل منها وقت معلوم تعقد فيه.

****

معارف العصر الجاهلي

كان لدى العرب في الجاهلية بعض المعارف، لعل أهمها :

أ- علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب، مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة. كأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم.

ب- ويلي هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥هـ : ((كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم)) .

ج- ومن معارفهم أيضاً معارفهم الطبية، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي بالنار، كما عرفوا فوائد بعض العقارات النباتية. وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكَلَب، وأن عظام الميت تشفي من الجنون، وأن روحاً شريرة تحل في المريض، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرقي، فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنياً على قواعد عقلية، وحقاً ما يقول ابن خلدون : ((للبادية طب يبنونه فيغالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثة من مشايخ الحيِّ وعجائزه)) . ومن معارفهم الطبية معارفهم البيطرية،وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا ما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به .

د- وشاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها الذي عرفت به في العصور الإسلامية وهو الفلسفة، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التي تصورها عبارة من العبارات القصيرة. ومن أمثالهم ((في بيته يؤتى الحكم)) وهو من يحكم بين الناس في منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . ومن أشهر كتبها ((جمهرة الأمثال)) للعسكري و ((مجمع الأمثال)) للميداني . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجري على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها في حياتهم ومن أشهر حكمائهم

: لقمان الحكيم ، وللقمان سورة في القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها في صحيفة تدعى مجلة لقمان .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكثم: ((مقتل الرجل بين فكيه)) وقول عامر بن الظرب: ((رب زارع لنفسه حاصد سواه)) . وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه الحكم، وهي تذكر في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعبيد بن الأبرص. وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويطأ بمنسم

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسننها التي وصفناها فيما مر من حديثنا، وهي تجري مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم .

وكان لهم ضرب من التفكير في حقائق الحياة والموت، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم. وليس في ذلك كل فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

وقفة :

س) من خلال ذلك، هل يمكننا القول إن العرب في العصر الجاهلي كانوا أصحاب علم ونظر عقلي مؤسس على أسلوب علمي ومبني على قاعدة ؟!

ج) هذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية، فهم في جمهورهم بدو، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلي مؤسس على أسلوب علمي. ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لهب، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءولون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة، ولهم في الطيرة أحاديث كثيرة، قال الجاحظ : ((وأصل التطير من الطير إذا مر

بارحا (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا .. فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء.. وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم ، والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم)) .

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلي عندهم كان ضعيفاً، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً، وهذا طبيعي فقد كانوا في طور البداوة، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول، وكانوا لا يتعمقون في بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً. يقنون عند الجزئيات، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة .

الحياة الدينية

١ - الوثنية:

كانت غالبية العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبثُّ في الكواكب ومظاهر الطبيعة، فليس صحيح أن العرب في الجاهلية كانوا موحدين ، وإنما كانوا يتعبدون أصناماً وأوثاناً كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم . وقد دخلت عندهم عبادة النجوم والكواكب منذ القدم، فكانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس : هو ((ود)) : القمر وهو الأب، و ((اللات)) : الشمس وهي الأم، و ((العزّى)) : الزُّهرة، وهو الآبنُ فيؤلفون بذلك ثالوث الأب والأم والابن .

وقد اتخذوا عبادة الأصنام والأوثان بعد أن صوَّروها أو نحتوها، ومن أشهر أصنامهم:

١- العُزّى: كانت لقبيلة غطفان، وهي عبارة عن شجرة شرقي مكة.

٢- اللات: ((الشمس)) وكانت عبادتها منتشرة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز، وكان معبدها في الطائف.

٣- مناة : وهي صخرة منصوبة بين مكة والمدينة،وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت، وكانت معظمة عند هذيل وخزاعة والأوس والخزرج.

٤- ودَّ: ((القمر)) كان صنمه بدومة الجندل.

٥- سواع: صنم هذيل وكنانة، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك.

٦- يغوث: صنم مذحج وهوازن .

٧- يعوق : صنم همدان وخولان.

وفي أسم هذين الصنمين ما يشير إلى أرواح حافظة فمعنى ((يغوث)) يعين، ومعنى ((يعوق)) يحفظ ويمنع.

٨- نسر : معبود حمير، ويشير اسمه في وضوح إلى الطائر المعروف باسمه.

٩- وكانت هناك أصنام كثيرة تتعبد لها قريش، أعظمها عندهم ((هبل)) وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، وجعلتها له قريش من ذهب،وكان في جوف الكعبة.

وقد جعلوا لهذه الأصنام بيوتاً، كانت بمثابة كعبات كبيرة يحجون إليها لعل أشهرها كعبة مكة حارسة الوثنية في الجاهلية، كما كانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من

حجارة يصبُّون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم. ويبدو أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم وقد هدمها الإسلام هدماً. وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة في الحج ، وقد جعلوا للحج أربعة أشهر معلومات سموها الأشهر الحرم ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

وكان هؤلاء الوثنيون يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح ، وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، ومنها أرواح خيِّرة وهي الملائكة، وأرواح شريرة وهي الشياطين . كما كانوا هؤلاء الوثنيون ينكرون الرسل وينكرون فكرة الإله الواحد، ولا يؤمنون ببعث ولا نشور .

٢- الحنيفية :

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد ، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء، وكانت تشك في الدين الوثني القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه،ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها، فقد كانوا منتشرين في القبائل، إذ تعد كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادي وأبا ذر الغفاري ، وعامر بن الظرب العدواني وأمية بن الصلت، ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم ، وحنظلة الراهب غسيل الملائكة. وبذلك أصبحت الوثنية على وشك الانحلال، فما انبلجت أضواء الإسلام، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً.

٣- المجوسية :

يقال إن المجوسية كانت متفشية في تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية، والمجوس كما نعرف ثنوية يؤمنون بإلهين يديران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

٤- اليهودية :

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز، وكان يهود الحجاز قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، وأهم عشائرها بنو النضير وبنو قنيقاع ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج ، ومما لا شك فيه أن اليهود كانوا يناهضون الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويعادونه ويثيرون معه مناقشات ومجادلات كثيرة مما اضطره إلى إجلائهم عن المدينة . ونجد هؤلاء اليهود اتخذوا اللغة العربية لغتهم اليومية، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً، واشتهر بينهم أكثر من شاعر كالسمو أل بن عادياء. وفي عهد عمر رضي الله عنه أمر

بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة، ولم يبق منهم إلاّ نفر قليل، وليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين .

٥- النصرانية :

انتشرت النصرانية في القرن الرابع الميلادي في اليمن وشمالي الجزيرة. وكان من أهم الأسباب في انتشارها:

١- البعثات الدينية التي كان يشجعها القياصرة ، ولعلهم أرادوا بذلك فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم .

٢- دخول النصرانية بقيادة أبرهة في الجزيرة العربية؛ وبذلك دعمت النصرانية واعتنقها كثيرون وبنيت بها كنائس في أكثر من مدينة، ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران، ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن، واهتم بزينتها وزخرفتها .

٣- كانت مكة تزخر بالرقيق الحبشي والرقيق الرومي ،وكان أغلب هؤلاء الرقيق يعتنقون النصرانية، ويقال إن قوماً تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل. كما كانت النصرانية منتشرة في بعض القبائل من طيء ودومة الجندل .

وينبغي أن لا نبالغ في تصور من تنصروا من العرب قبيل الإسلام، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً، فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، وربما يوضح ذلك خير توضيح قول عدي بن زيد العبادي :

سعى الأعداء لا يألون شرّاً علـيَّ وربِّ مكة والصليب

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذي كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول:

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذُبال المفتلا

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في الشعراء آثاراً مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسرب فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين.

سيادة اللهجة القرشية

ذهب أكثر الباحثين العرب إلى أن اللهجة القرشية هي أفصح اللهجات العربية وأحسنها ، وهي أكثر اللغات إبانة ورقة وجودة ، وهي لغة الذكر الحكيم. وهذا يؤكد أن لغة قريش هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم. يقول أبو نصر الفارابي : ((كانت قريش أجود العرب انتقاء للافصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانةً عما في النفس)).

ويقول أحمد بن فارس : ((أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبيّ الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام، وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم)).

ويقول ابن خلدون : ((كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم)) .

وقفة :

حاول بعض المستشرقين – ببعض الآراء التي تعتمد على الحدس والفرض – أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش .

وفي رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لابد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أوحضارية، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغتها المحلية .

ونحن إذا طلبنا أسباباً لتفوق لغة قريش على جميع اللهجات واللغات المجاورة وجدنا أسباباً كثيرة تساعد على ذلك وهي :

١- أسباب دينية: فقد كانت قريش مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي؛ إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية.

٢- أسباب اقتصادية مادية : كانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية، فهم أصحاب التجارة في رحلتي الشتاء والصيف، كما كان العرب يجتمعون إليها في أسواقها القريبة والبعيدة يعرضون سلعهم وبضائعهم فيها.

٣- أسباب سياسية: قريش هم قطان الحرم وأهله وهم سدنه الكعبة، ولم يستطع أحد أن يتعرض لهم بالضرر أو بالهجوم، بخلاف القبائل الأخرى التي كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة عليها.

٤- أسباب أدبية: فقد كانت أهم مركز لتجمع القبائل العربية من أنحاء الجزيرة،وذلك في سوقها عكاظ الذي كان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء فيها قصائدهم ، ويعرضون ما لديهم من مهارات لغوية أدبية، وقد ذهب الرواة إلى أن العرب ((كانت تعرض أشعارهم على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردُه منها كان مردوداً)).

وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذ قلنا إن لجهة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية.

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طرق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي، بل منذ أوائله، فأقدم نصوصه كأحدثها نظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتي سُميت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها، فاندفعوا يحاكونها، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية. ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالا وجنوباً على الارتشاف من صافي لغته وعذب بلاغته.

قضية الانتحال

قضية الانتحال من أهم القضايا التي أثيرت حول الشعرالجاهلي .

وتعني قضية المقطوعات أو القصائد التي تنسب إلى غير قائلها ، حيث ادعى بعضهم أن ما وصل إلينا من شعر جاهلي ليس للجاهليين

وقد شاع حول هذه القضية ثلاثة مصطلحات النحل ، والانتحال ، والوضع

النحل : أن ينسب الرجل شعر شاعر إلى شاعر آخر .

الانتحال : ادعاء شعر الغير .

الوضع : أن ينظم الرجل شعر ثم ينسبه إلى غيره لأسباب ورواعٍ .

وأكثر المصطلحات شيوعًا في هذه القضية مصطلح ((الانتحال))

دائرة قضية الانتحال

أولا : القدماء

ثانيا : الباحثون المحدثون

اولا / عند القدماء

أشار القدماء مرارًا وتكرارًا إلى أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف ، وما وضعه الوضاع ، متخذين مقاييس كثيرة لكشف الزيف . وأهملوا كل ما روي عن المتهمين أمثال حماد الراوية ، وخلف الأحمر .

وأشهر العلماء الذين كانوا بالمرصاد لهؤلاء الرواة المتزيدين ، ابن سلام الجمحي ، المفضل الضبي ، والأصمعي .

جهود ابن سلام الجمعي في قضية الانتحال :

دوّن ابن سلام الجمحي في كتابه ((طبقات فحول الشعراء)) كثيرًا من الملاحظات لأهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم . وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية.

أسباب وضع الشعر عند ابن سلام :

تزيد القبائل في شعر شعرائها ، وقولهم الشعر على ألسنتهم ، ليذيع لهم مفاخر ووقائع كسائر القبائل .

يقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانت ترويان شعرًا منتحلاً كثيرًا :

١- طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه ، وتلحق ما تنظمه بالجاهليين ، من أمثال حماد الرواية ، وخلف الأحمر وجناد وهؤلاء أشد خطورة .

٢- طائفة لم تحسن النظم ، ولكنها كانت تحمل من الشعر كل غثاء وزيف ، مثل رواة الأخبار والسيرة والقصص ، مثل ابن اسحاق راوي السيرة النبويةا

موقف العلماء القدماء من هاتين الطائفتين :

* رفض ابن سلام والأصمعي رواية هاتين الطائفتين ولم يقبلوا منها شيئا.

ثانيا / الباحثون المحدثون .

أ / المستشرقون .

أثار عدد كبير من المستشرقين قضية الانتحال في العصر الحديث ، وقد بدأ النظر في هذه القضية نولدكه وتلاه آلورد ، وبروكلمان .

ولكن (مرجليوث) هو أكبر من أثار هذه القضية في كتاباته ، وشكك في الشعر الجاهلي وقال ان الشعر الذي بين أيدينا ، شعر موضوع وليس جاهليًا ، وذكر أسبابًا في هذا الشك ، ولكن العلماء تصدوا بالرد عليه .

ب/ العرب المحدثون

تعرض مصطفى صادق الرافعي لهذه القضية ، ولكن لا يتجاوز ما قاله القدماء ، خلفه الدكتور طه حسين ، الذي درس هذه القضية في كتابه (الشعر الجاهلي) الذي أحدث ضجة عنيفة أثارت الكثير من الباحثين ، الذين تصدوا للرد عليه ، ولم يلبث أن ألف مصنفه الآخر (في الآدب الجاهلي) الّذي أقصى منه بعض الجوانب حول هذه القضية.

أسباب التشكيك في الشعر الجاهلي :

* زعم د.طه حسين أن الشعر الجاهلي لا يصور حياة الجاهليين الدينية .

* الرد : ليس صحيحًا أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية للجاهلين ،

فهناك (كتاب الأصنام) لابن الكلبي، ينقض هذا الادعاء . ثم إنه إذا كان هناك بعض الألفاظ الدينية في الشعر الجاهلي ، فهو يرجع إلى طائفة المتحنفين ،

الذين كانوا على الايمان بالله . أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحته هو في غالب الأمر شعر موضوع ، ونتفق في إخراجه من الشعر الجاهلي . .

* زعم أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة العقلية للجاهليين .

الرد : على العكس نجد أن حياتهم العقلية ماثلة في شعرهم ، وفي لغتهم ، فقد كانت اللغة ، أعظم مظاهر الحضارة العقلية ، فهي بنحوها وصرفها واشتقاقها ، وشتى فنونها البلاغية والعروضية ، أوضح دليل على ما بلغه القوم من رقي عقلي ونضج فكري .

* زعم أن الشعر الجاهلي لا يصور الحياة السياسية للجاهلين على الرغم من اتصالهم بمن حولهم من الأمم .

الرد : هذا الأمر لا يصدق على العرب جميعًا ، إنما يصدق على قريش ، لأنها كانت في بعد عن الأمم الأخرى ، وعن الاحتكاك بهم سياسيًا ، أما غيرهم من شعراء نجد والحجاز ،كان لهم اتصال بالغساسنة من أتباع الروم ، والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم أو يهجونهم .

* زعم أن الشعر الجاهلي لا تتضح فيه حياتهم الاقتصادية من غنى وفقر وعوز .

الرد : من يتتبع حياة الصعاليك ، يعرف أن العرب كان منهم طائفة غنية تستأثر بالثروة ، وطائفة فقراء وصعاليك تترد في أشعارهم صيحات الجوع والفقر ، وقد جاء شعرهم يصور هذه الناحيتين ، ثم أن هناك شعر كثير في مدح الكرماء ، الذين يقدمون مالديهم من طعام للفقراء والمعدمين من الصعاليك وغيرهم ، وفي هذا ما يدل على الناحية الاقتصادية المتفاوتة ما بين غنى وفقر .

ومما لا شك فيه أن هناك تأثر بين " مرجليوث " و د. طه حسين في بعض الادعاءات ، وهذا يؤكد أنه قد اطلع على أفكار مرجليوث وأخذ منها الكثير قي هذه القضية ، وضمها كتابه (الشعر الجاهلي) .

أغراض الشعر الجاهلي

إن أهم ما يتميز به الشعر الجاهلي أنه شعر غنائي ، يصور نفسية الفرد ، وما يختلجه من عواطف وأحاسيس وانفعالات ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر ، أو حين يمدح و يهجو ، أو حين يتغزل ويرثي ، أو حين يصف شيئاً مما حوله . وقد ارتبط الشعر الجاهلي ارتباطاً وثيقاً بالغناء عند أقدم شعرائه فالموسيقا أهم مقوماته والغناء مظهر م مظاهره .

هناك محاولات كثيرة قام بها العلماء القدامى في تحديد أغراض هذا الشعر الغنائي ، إن أول محاولة تواجهنا هي محاولة أبي تمام (ت نحو ٢٣٢هـ) الذي قسمه في كتاب " ديوان الحماسة " شرح التبريزي إلى عشرة أبواب ، هي : الحماسة ، والمراثي ، والأدب والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس والمُلح ، ومذمة النساء . لكن الأعلم الشنتمري في شرحه لديوان الحماسة ، قسمة إلى ثلاثة عشر باباً ، هي : الحماسة (الشجاعة) ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب ، والمديح ، والأضياف ، والهجاء ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح والطرف والمُفاحشات ، ومذمة النساء ، القصر، والكبر . ونلاحظ أن الأعلم قد فصل بين المديح والأضياف ، وزاد بابين ، هما : القصير ، والكبير . أما الأول ، فقال عنه الأعلم : " وهو بباب الصفات أشبه " وأما الآخر ، فقال عنه : " وهو مما يصلح لباب الأدب " . وقال أيضاً : " وهذا الباب الثالث عشر (أي : الكبر) زائدٌ على ما تضمنت حماسة أبي تمام القديمة ...

فأتيت به ، ليأتي هذا الكتاب على جميع ما تضمنت الحماساتُ المختلفة من الأبواب " يعلق الدكتور شوقي ضيف على هذه الأبواب قائلاً : وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض ، فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل في المديح أو في الحماسة الفخر السير والنعاس يدخلان في الصفات ، كما تدخل مذمة النساء .

ويمكننا تحديد أبواب الحماسة بستة موضوعات – بعد إدخال بعض الأبواب في أبواب أخرى- وهي : المديح ، والهجاء ، والمراثي ، والتشبيه ، والوصف ، والنسيب . يمكننا إدخال التشبيه ، في أي باب من الأبواب المذكورة ، لأنها جميعاً لا تخلو منه .

* أهم أغراض الشعر التي شاعت في العصر الجاهلي

١- النسيب والغزل

النسيب : هو رقيق الشعر في النساء . ونَسَبَ بالنساء ينسب ، وينسِب (بكسر السين) نسيباً ، ومنسبة : شببَّ بهن في الشعر وتغزل ، وهذا الشعر أنسب من هذا ، أي أرق نسيباً .

والغزل: حديث الفتيان والفتيات ، اللهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتُهنّ ومراودتهنَّ ، والتغزُّل : التكلف لذلك ، ورجل غزل : متغزلُ بالنساء ، أي ذو غَزل ، وفي المثل : هو أغزل من امرىء القيس.

والتشبيب : هو الجمع بين النسيب والغزل ، تقول : شَبَّب بالمرأة : قال فيها الغزل والنسيب، وهو يشبب بها ، أي : ينسب بها. والتشبيب : النسيب بالنساء ، وتشبيب الشعر : ترقيق أوله بذكر النساء ، أو ترقيقه بذكر النساء ، وهو من تشبيب النار. وقد ورد في (المخصص) في تعريفه للغزل : أنه تحديث الفتيات الجواري ، والتغزل بهن في الشعر ، والتشبيب مثله .

وعلى ما تقدم يمكن القول : إن النسيب- التشبيب- والغزل كلمتان مترادفتان متوافقتان في المعنى الى حد ما ، مختلفتان في الممارسة والعمل كما وضحنا. وهناك كثير من الباحثين يستخدمون الكلمتين بمعنى واحد دون تفريق، وهذا هو الشائع.

أهمية غرض الغزل

والغزل من أصدق الأغراض الشعرية ، وأقربها إلى النفس ، وأعمقها عاطفة ، وأقواها انفعالاً ، وأكثرها تعبيراً عن الأحاسيس ، لأنه نابع من الشعور بالحب ، لا تكلف غيه ولا رياء ، ولا كذب ولا خداع . ويكاد هذا النمط من الشعر يطغى على الأغراض الشعرية الأخرى ، فهو مطلع قصائدها ، ومفتاح نظمها ، ومقدمة قَريضها ، يشاركها في بابها ولا تشاركه في بابه ، وأغلب القصائد – لا المقطعات – الجاهلية دليل شاهد على ذلك

نوع الغزل الجاهلي في العذل

و حين نستعرض الغزل في العصر الجاهلي ، نجد أن أغلبه كان حسياً يتحدث مفاتن المرأة ، وجمال جسدها ، فقد وصفوا شعر المرأة وجبينها وعيونها خديها وفمها ، وأسنانها ، وريقها ، وجيدها ، كما ذكروا خضابها وطيبها وحليها ، وزينتها ، وثيابها وتناولوا حركاتها وسكناتها ، وحياءها وعفتها وما هنالك من أمور أخرى .

٢- المدح

المدح لغة : حسن الثناء . والمديح في فطرة الإنسان ، لأنه إحساس الكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه . ولا تكون الكبرياء رذيلة ممقوتة إلا إذا جاوزت مقدارها الطبيعي ، فهي حينئذ تنقلب صلفاً ، وتدخل في حكم الطباع المتكلفة ولا تحدث في النفس إلا هماً وغروراً .

ويجمل ابن رشيق شروط المديح بقوله : وسبيل الشاعر – إذا مدح ملكاً- أن يسلك طريقة الإفصاح ، والإرشاد بذكر الممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلةً وألفاظه نقية ، غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب – مع ذلك التقصير ، والتجاوز والتطويل .

ولم يكن غرض المديح موضوعاً قائماً بذاته ، يبدأ الشاعر به في قصيدته ، بل كان جزءاً من القصيدة ، متأخراً عن الغزل في رتب كثيرة منها : أن الغزل أسبق إلى الوجود ، وأحق بالتقديم ، أصدق في العاطفة ، وأطول في الجزء ، وأكثر في عدد الأبيات ، ويضاف إلى ذلك ، أن المدح بحاجة إلى تكلف وتصنع وسبك وتنقيح وتهذيب أكثر مما يحتاج إليه موضوع الغزل ، الذي يعبر عن الأحاسيس تعبيراً صادقاً. وتمتاز قصائد

العصر

المديح في الجاهلي بالبساطة ، والسهولة ، والصدق ، وبعدها عن الغلو والمبالغة إلى حدّ ما ، ولا سيما ، قصائد زهير بن أبي سلمى الذي لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه ، ولا يقول إلا بما يعرف .

٣- الحماسة والفخر

الحماسة : الشجاعة والشدة . والأحمسُ والحِمسُ والمتحمسُ : الشديد وتحامس القوم تحامساً : تشادوا واقتتلوا .

الفخر والفخرُ والفَخَار والفَخَارةُ ... التمدح بالخصال والافتخار ، وعدّ القديم ، وقد فخر يفخر فخراً فهو فأخر وفخور ، وكذلك افتخر. وتفاخر القوم : فخرَ بعضهم على بعض .

والتفاخر : التعاظم . والتفَخُّر : التعظيم والتكبير.

والفخر جزء لا يتجزأ من الحماسة ، والحماسة أعم وأشمل من الفخر ، فهي تعني : القوة والشدة والشجاعة .

واحتل موضوع الحماسة مكانة عالية لدى الشعراء الجاهليين ، لأنه يشيد بانتصاراتهم في الحروب ، ويعبر عن أشعار الجاهليين وقصيدهم في مدحهم بالمثل العليا من كرم ووفاء وعفة .

٤- الرثاء

الرثاء هو بكاء الإنسان بعد موته . تقول : رثى فلانٌ فلاناً يرثيه رثياً ومرثيةً إذا بكاه بعد موته . ورثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته : مدحته بعد الموت وبكيته . ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه ، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً . وهو تصوير حزن الشاعر لموت إنسان ونقل الحزن نفسه إلى المتلقي . وبين قدامة بن جعفر مفهوم الرثاء بقوله : إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه هالك ، مثل : " كان " و " تولى " و " قضى نحبه " وما أشبه ذلك .

ويعد الرثاء من أصدق الأغراض الشعرية إلى جانب الغزل – مع اختلافهما لأنه يصدر عن قلب نابض بالحسرة والأسى والحزن ، وعن إحساس عميق بالفقد ، ولذلك قيل : سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجيع ، بين الحسرة بالتلهف والأسف والاستعظام ، صادقاً ، بعيداً عن الخيال ، عميقاً في المعنى .

٥- الـــــهجاء

الهجاء ، ضد المدح ، وهو يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء وكلما كثرت أضداد المديح في الشعر ، كان أهجى له . والهجّاء ناقد بطبعه عياب ، تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم أكثر مما تسترعيه فضائلهم ، فكأنه لا يهتدي لنفسه إلا بالقدر الذي يدفعه إليه حقده وغضبه ، فهو لا يكتشف ذوقه ومواهبه إلا عن طريق السخط وهو – في الوقت ذاته – ساخط على المجتمع ، ثائر على ما فيه ضيق به ، وهذا الشعور مركوز في نفسه ، مستقر في باطنه .

وكان الهجاء يسير جنباً إلى جنب مع الفخر ، فحين يفاخر الشاعر بقبيلته ، لا بدّ له من هجاء القبائل الأخرى التي تناصب العداء لها .

ويقال: إن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلّة خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين و دهن أحد شقي رأسه ، وأنتعل نعلاً واحدة ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه حتى تصيب لعناتٌ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى ، وضروب النحس المستمر .
ويروى عن خلف الأحمر أنه قال : أشدّ الهجاء أعفه وأصدقُهُ ، وقال أيضاً : ما عفَّ لفظه ، وصدق معناه . أما الجرجاني فيقول : أما الهجو ، فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ، ولصوقة بالنفس .

٦- الوصف

لم يكن الوصف موضوعاً مستقلاً بذاته عند الشعراء الجاهلين ، على لرغم من انتشاره في كل قصائدهم ،.
وهناك نوعان من الوصف : الوصف الفني أو الموضوعي ، والوصف العرضي ، إن جاز

لنا أن نطلق هذين الأصطلاحين . فالأول : نعني به ذلك العرضي ،إن جاز لنا ان نطلق هذين الاصطلاحين . فالأول نعني به ذلك الوصف الذي يتجه اليه الشاعر معبراً عنه بشعره ، قاصداً إليه بعينه ، متناولاً إياه لجماله ، ومصوراً جزئياته لتأثره به ، مقصراً شعره عليه موضوعاً لا علاقة له بالموضوعات الأخرى ، وهذا النوع لا نجده في العصر الجاهلي الا ما وقع نادراً . وقد شاع مثل هذا الفن في الشعر الأندلسي خاصة.

أما النوع الأخر ، فهو ذلك الوصف العرضي الذي لم يكن قصد بذاته وتعمدّته الأشعار، وقام عليه النظم ، وبنيت عليه القصائد ، هذا هوا الذي شاع في العصر الجاهلي ، فالشاعر يصف في كل موضوع يطرقه ، وكل غرض يتناوله ، سواء كان هجاءً او فخراً ، او مدحاً ، او رثاءً ، او غزلاً ، او اعتذاراً ، وعلى ذلك يكون الوصف أوسع أغراض الشعر الجاهلي ، فقد وصف الشعراء الطبيعة المحيطة بهم من : سماء ، وكواكب ، وسحاب ، ومطر ، ورياح ، وليل.

ويعتمد الوصف على التشبيه ذلك أن الوصف يتولد من التشبيه الذي يقوم على استخدام العناصر المحيطة بالشاعر ، لذا فإن معظم تشبيه الجاهليين جاء حسياً .

٧- الاعتذار

يقول أبو هلال العسكري: كان أقسام الشعر في الجاهلية خمسة المديح الهجاء الوصف والتشبيه والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا هو: الاعتذار فأحسن فيه. أشهر من برع في الرثاء
يفهم من قول أبي هلال أننا أمام شاعر فرد ، انفرد بغرض شعري قائم بذاته لا يشاركه فيه صاحب ولا قرين ، وليس له منافس في موضوعه ويحدد ابن رشيق مفهوم الاعتذار

بقوله: وينبغي للشاعر ألا يقول شيئاً يحتاج أن يعتذر منه ، فان اضطره المقدار إلى ذلك ، وأوقعه فيه القضاء فليذهب مذهباً ويقصد مقصداً عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه وكيف يجمح عواطفه ويستجلبُ رضاه .

٨- الحكمة والاخلاق

الحكمة : أدب مكثف يفرغ فيه الشاعر خلاصة تجاربه وخبراته في الحياة وكان الشاعر عادة يتوجه بها إلى قومه يحثهم فيها على مكارم الأخلاق والعفة والكرم وما إلى ذلك ولم تكن الحكمة غرضاً قائماً بذاته بل جات في ثنايا القصائد مبعثرة هنا وهناك.

خصائص الشعر الجاهلى

أهم خصائص الشعر الجاهلي ، التي نقسمها إلى قسمين : المعنوية و اللفظية .

أولاً : الخصائص المعنوية :

ونعني بالخصائص المعنوية : المضمون ، الذي و وحدة الفكر والخيال ، وما يتجه الشاعر من المعاني والخواطر التي يرمز إليها بالألفاظ والصيغ الأدبية ، على ألا نفهم أن هناك انفصالاً بين المضمون والشكل ، لأن شكل الأثر الأدبي متصل اتصالاً وثيقاً بالمضمون ، وقد أكد الكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير على هذا بقوله : ((لا شكل دون فكرة ، ولا فكرة مجردة عن الشكل)) .

١- نهج ال قصيدة الجاهلية :

تسير القصيدة الطويلة في العصر الجاهلي على نسق واحد إلى حدّ ما – عدا قصائد الرثاء وأشباهها – فهي تبتدئ بالوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، وذرف الدموع على ما تبقى من الآثار ، ويخاطب فيها الشاعر الريح ، ويستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، ثم يربط ذلك بالنسيب ، فيناجي الحبيب ، ويذكر ألم الحب ، ولوعة الهوى ، و فرطة الصبابة ، وحرقة الشوق ، وشدة الاشتياق ، ثم ينتقل إلى الشكوى من النصب والسهر وسُرى الليل ، وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الغرض الأساسي من مديح أوف خر أو هجاء ، وقد نجده يتحدث عن موضوعات أخرى لا علاقة لها بالمدح أو الهجاء كما هو الحال في قصيدة امرئ القيس الذي أخذ ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر ، دون أن يتعمق في وصف المشاهد – عدا وصفه فرسه - فيمر بها سريعاً ، ولكن هذه السرعة لم تضعف ترابط موضوعات القصيدة ، بل استطاع الشاعر أن يظهر براعته في توفير الوشائج بين تلك الموضوعات ، وأن يوازن بين الإحساس والفكر وبين العاطفة والصورة .

٢- السرعة في تناول المعاني وعرضها أو الإيجاز في المعاني لعمق دلالتها :

مما لا شك فيه أن الشاعر الجاهلي لم يقف عند المشاهد التي يصفها ، ولم يطل الحديث عنها ، بل مرّ عليها مروراً سريعاً ، فجاءت موضوعاته ومعانيه في القصيدة الواحدة كثيرة وسريعة في آن واحد ، ولكنها في الوقت ذاته مترابطة متماسكة ، ويرى بعض أن السبب في هذه السرعة حياته التي لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة . ولعل ذلك كله يعود إلى طبيعة المجتمع الذي يرفض الإطالة والإطناب في الموضوعات ، ويمجّ الحديث المطول عنها ،لوضوح عناصرها وقرب دلالاتها ، فهو يميل إلى الايجاز وعدم الإطناب ، وإصابة المعنى مباشرة ، لذوقه السليم وحسه المرهف .

٣- **وحدة البيت :**

إن وحدة البيت في القصيدة الجاهلية لا تتعارض أبداً مع وحدة القصيدة ، فالبيت الواحد كاللؤلؤة مستقلة بذاتها، وقيمتها ، وثمنها ،وجمالها ، وإذا ما اجتمع اللؤلؤ في العقد ظهر جماله ، وروعته ، واكتماله ، وكذلك البيت الذي يتحد مع غيره من الأبيات ليشكل صورة ، وهذه الصورة يتولد عنها صورة أخرى وهكذا إلى أن تصبح مجموعة من الصور تشكل الصورة الكلية في القصيدة .

وقد نبه النقاد إلى ضرورة أن يجتهد الشاعر في أن يكون معنى كل بيت ولفظه متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ ، من غير حشو ولا تضمين .

وقد عاب النقاد التضمين ، وعدوه من أكبر العيوب ، وأطلقوا على البيت الذي لا يستقل بمعناه ، بل يحتاج إلى غيره " المبتور " : ومثال عليه :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونـــاء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ولعل الذي دفع الشعراء إلى السعي في وحدة البيت هو اعتمادهم على الحفظ والرواية ، وعدم انتشار الكتابة والتدوين ، إلى جانب استقلالية الفرد بنفسه ، ذلك الفرد الذي يتضامن مع الأفراد في ظل القبيلة أو المجتمع ، وكذلك البيت يستقل بذاته ويشارك غيره في موضوع واحد .

ونعود ونقول : إن وحدة البيت لا تتعارض إطلاقاً مع وحدة القصيدة وترابط موضوعاتها ، ولا شك أن وحدة البيت تدل على شاعرية الشاعر ومقدرته الفنية ، لأنه يحصر نفسه في وزن معين يتسع لألفاظ محدودة ، عليه أن ينتهي المعنى المنشود ، ويفرغ الفكرة المطلوبة في ذلك الوزن وتلك الألفاظ .

٤- **البساطة والصدق وعدم التكلف :**

هي من أهم ما يميز الشعر الجاهلي ، فلم يعمد الشاعر – حينذاك - إلى فلسفة المعاني وتعقيدها ، على الرغم من عمق دلالتها ' وقوة معناها ، وترجع تلك البساطة وذاك الصدق إلى عدم فرض إرادة الشاعر الفنية على الأحاسيس والأشياء والعناصر المحيطة به ، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته وصورة نقلاً أميناً، ومن أجل ذلك كله كان شعره وثيقة دقيقة ، لمن يريد أن يعرف حياته : الخاصة والعامة ، وبيئته :الاجتماعية و العقلية والاقتصادية والأدبية ونخص بالذكر الطبيعية والجغرافية .

والشاعر الجاهلي لا يعرف التحذلق ، أو الرياء أو التملق ويتضح ذلك بجلاء في مدائح زهير بن أبي سلمى الذي قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ((إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ولا يقول إلا بما يعرف)) .

٥- كثرة الحكم والأمثال :

لا تكاد تخلو قصيدة من قصائد العصر الجاهلي من حكمة أو مثل سائر ، والمعروف أنهما أدب مكثف لا يهتم بالتفصل ، ولكنه يهتم بنقل صفوة التجارب والخبرات ،ويقال : نجتمع في المثل أربعة أمور لا نجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة .

٦ الشعر الجاهلي شعر غنائي :

قد ارتبط الشعر الجاهلي ارتباطاً وثيقاً بالغناء عند أقدم شعرائه ، فالموسيقا من أهم مقوماته ، والغناء مظهر من مظاهره. فقد تغنى الشعراء بأشعارهم، ولعلهم عبروا عن إلقاء الشعر بالإنشاد، فكانوا يقولون: ((أنشدنا فلان)) ومنه الحُداء الذين كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم ،وكان غناءً شعبياً.

٧- عدم الإغراق في الخيال

إن عنصر الخيال يكاد يكون محدوداً الواقع . لأن الشاعر اعتمد على الصور التى تقوم على التشبيه المستمد من الواقع المادي الحسي . فالشاعر الجاهلي لم ((يغرق في الخيال حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة .فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة . ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود)) . ويقدم الشاعر معظم معانيه مكشوفه محسوسة . لأنها تسردُ سرداً . وقلما شابها الخيال . الذي يزيدها إمعاناً في الوضوح .

ثانياً : الخصائص اللفظية :

١- الشعر الجاهلي كامل الصياغة . تام التراكيب، متين المبنى . قوي المعنى . عميق الدلالة . فلا عجز فيه ولا قصور، ولا نقص ولا خلل . وكل النصوص الشعرية شاهد على هذه القضية .

٢-دل الشعر الجاهلي على رقيه اللغوي الذي لم يكن عفوياً . أو أنه نشأ من عدم . بل سبقته تجارب متعددة، ومحاولات كثيرة . حتى وصل إلى ما وصل إليه، لأن الشعر الجاهلي . الذي وصل إلينا مر في أطوار .ذلك أن العرب خطوا من المرسل إلى السجع إلى الرجز . ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيدة. ويقول ابن رشيق : ((وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها . وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة .... فتوهموا أعارض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به .أي :فطنوا)) .

٣- يتماز الشعر الجاهلي بالتنقيح والتحكيك، فقد أخذ بعض الشعراء يصقلون أشعارهم، ويهذبونها ويصفونها، ويوجهون جل اهتمامهم إلى قوالب التعبير، حتى إن بعضهم بالغ في إخراج قصائده، ومنم زهير بن أبي سلمى الذي كان يعمل قصيدته في ستة أشهر، ويهذبها في ستة أشهر، ثم يظهرها، فتسمى قصائده ((الحوليات)) لذلك نجد الحطيئة يصرح أن خير الشعر الحوالي المنقح .

٤- يتماز الشعر الجاهلي جزالة الألفاظ وفخامتها، في الموضوعات التي تحتاج إلى جزالة ومتانة وقوة،: كأعراض : المديح والهجاء والفخر.

٥- أكثر الشعراء من إيراد الصور البيانية والمحسنات البديعية وكان أكثرها شيوعاً في نظمهم التشبيه الذي يقوم على المماثلة بين شيئين من واقع الشعراء الحسي ،ولم يكن هذا التشبيه أو تلك الصور البيانية معتمدة، إنما تأتي عفو الخاطر تطلبها الصورة، ويفرضها الواقع وتحتاجها القصيدة فهي من مكملات بناء القصيدة.

٦- غرابة بعض الألفاظ : وهذه الظاهرة ليست غريبة، لأنها كل عصر من العصور تستخدم الفاظاً تهمل في العصر الذي يليه في حالة عدم استخدامه لمثل تلك الألفاظ، فالمعجم اللغوي للناقة وما يتصل بأعضائها كان شائعاً في العصر الجاهلي، قريب التناول، سهل المأخذ داني المعنى، وهذا واضح عند طرفة الفتى القتيل، ابن العشرين الذي أبدع أيما إبداع في وصف ناقته ثم أخذ استعمال تلك الألفاظ يقل شيئاً فشيئاً على مر العصور، إلى أن أهملت في عصرنا الحاضر، فأصبحت غريبة كل الغرابة في أيامنا هذه، ولكنها لم تكن كذلك في العصر الجاهلي ولا شك أن الألفاظ التي تمتاز بالخشونة والصلابة والوعورة والغرابة تختلف من شاعر إلى شاعر، ومن مكان إلى مكان .

٧- البعد عن المعاظلة اللفظية :

والمعاظلة مأخوذة من قولهم : ((تعاظلت الجرادتان)) إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسمي الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه ((المعاظلة)) مأخوذاً من ذلك، وهو اسم لائق بمسماه، وقد وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير ابن أبي سلمى، فقال: ((كان لا يعاظل بين الكلام)).

٨- القصيدة إلى المعنى في إيجاز ويسر بأقل الألفاظ :

كان الشاعر ينظم قصيدته بأقل ألفاظ ممكنه، فما دام المعنى واضحاً أمامه، والألفاظ طيعة، يحسن اختيارها وصياغتها فهو لا يرضي إلا أن يوجز في اللفظ، فلا يطنب، ولا يضيف لفظاً إلا إذا كان ذا قيمة في توضيح معنى، أو إقامة وزن .

٩- لا مجال للبحث عن الخطأ والصواب في الشعر الجاهلي ، من حيث الألفاظ واشتقاقها وتركيبها وصياغتها ، لأن الشعر الجاهلي من المصادر الأساسية التي بنيت عليها قواعد اللغة ، يقاس عليها ، ولا تقاس على غيرها ، يحتج بها ،ولا يحتج عليها .

أما ما يظهر من أخطاء الشعر ، فقد يكون من وضع الرواة ، أو العلماء الذين أخذوا يغيرون كلمة بدلاً من أخرى ، أو يحرفون ببعض الألفاظ والتراكيب الخدمة قضية ، أو دعم قاعدة كانوا بصددها ، ومع ذلك فهي قليلة نزرة نادرة .

١٠- لا سبيل إلى البحث عن الخطأ في الوزن العروضي ، أو عيوب القافية ، لأن الشعر الجاهلي هو الأساس في وضع موازين الشعر ، فمنه أسست ، وبه قامت ، وعليه بنيت ، وما ورد فيها من زحافات وعلل إنما جاء مطابقاً للأوزان المعتبرة ، وبذلك أصبح الشعر الجاهلي صحيحاً في وزنه ، يحتج به ولا يحتج عليه .

وأما ما ورد من عيوب القافية فهي نادرة أنواعها معدودة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ونخص بالذكر ((الإقواء)) وهو اختلاف حركة الروي في القصيدة واحدة ، أي : أيجيء بيت مرفوعاً ، وآخر مجروراً .

طوائف من الشعراء الجاهليين

(مدارس الشعر الجاهلي)

الفرسان

رأينا القبائل في الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهي كتائب تنزل للرعي ، وفي الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كي تدفع خصومها عن مراعيها ، أو تغير عليهم وتسبي نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكان يحاربون راجلين وركبانًا على الإبل والخيل، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسرعتها في الطراد والإغارة ، فأحبوها وعنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق. وقد دارت أوصافهم لنا في شعرهم الجاهلي .وممن اشتهر بوصفها أبو دُؤاد الإيادي وطُفيل الغنوي .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة في حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها. وتلقانا دائمًا أسماؤهم وخاصة في حروبهم الطويلة مثل حرب البَسُوس وفارسها **المهلهل التغلبي**، وهو الذي أشعل نيرانها ثأرًا لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه . وشعره يدور في رثاء أخيه وتوعد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم .

ومن فرسانهم المشهورين **عامر بن الطُّفيل** فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدها بأسًا ، وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرق الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر **عنترة بن شداد العبسي** ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب، كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة الفلحاء . وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنترة ابنًا له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس والغبراء .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، ومازالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية، وقد اتخذت من أخباره نواةً للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعد إلياذة العرب . ونحن لانعني الآن بعنترة الأسطورة ، إنما نعني بعنترة الفارس الجاهلي الذي دوخ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلح شفتيه ، والذي لا شك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضربًا من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائمًا بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح في أشعار عنترة .

وردد البصر في أشعار عنترة فستجده يأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة.، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغي على غيره ولا يحتمل البغي ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه .

ونراه يتحدث عن فروسيته وبسالته في الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصب عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويصمي . ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه . فهو يقدم في أهوال الحروب وخطوبها ، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . يقول في معلقته مخاطبًا ابنة عمه عبلة التي شغف بها حبًّا :

أثنى عـــليّ بما علمت فإنني ... سمحٌ مخالقتي إذا لـــــم أُظلَم

فإذا ظُلمتُ فإنّ ظُلميَ باسلٌ ... مُـــرٌّ مذاقتهُ كـــــطعم العلقَم

يخبرك من شهد الوقائعَ أنني ... أغشى الوغَى وأعفُّ عند المغنَم

* علاقة الفارس بفرسه

وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذي يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصورًا آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية:

فـــازورّ مـــن وقع القنا بلبانه ... وشـــكا إليّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلامَ مُكلمي

وكأنما فرسه بضعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات ، فإذا سبى امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية حُرمتها

* علاقته بالجارة

كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يغض طرفه عنها ولا يُتبعها قلبه وهواه ، يقول :

ما استمتُ أنثى نفسَها في موطنٍ حتى أوفّي مهرَها مولاها

أغشى فتاةَ الحيّ عند حليلها وإذا غزا في الحرب لا أغشاها

وأغضُّ طرفي ما بدَت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤٌ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أتّبعُ النفسَ اللجوجَ هواها

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهي مروءة طرزها حب عذري عفيف لابنة عمه عبلة ، حقا إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء العصر الأموي ، بسبب المعاني الروحية التي بثها الإسلام في نفوس العرب ، وهو لم يشع في الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة ، فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب ، بل أيضًا في حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته ، ومضى يحبها حبا عنيفا ، أو قل حبا بائسًا محرومًا فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملذع الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول :

أفمن بكاءِ حمامةٍ في أيكةٍ ذرفتْ دموعُك فوق ظهر المِحْمَل

* عناصر وأفكار الحب العذري

١ فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذي يهب من صوبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول في معلقته :

حُيِّيت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

ولقد نزلت – فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

ودائما نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها ، ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها في معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية، فمن أجلها يحارب ويستبسل في القتال، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمي حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده ، وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ منّي وبيضُ الهند تقطرُ من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعتْ كـــبارقِ ثغرِك المتبسِّم

فهو دائم الذكر لها في وغي الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها في ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق. ويقال إنه قُتل في غارة له على بني نَبْهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتفه أنفه .

الصعاليك

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق ، ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس ابن الحدادية وأبي الطمحان القيني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفري، وكان يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا بهم وأضرابهم باسم أغربة العرب، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافًا ، وحينئذ قد تكون أفرادًا مثل عُروة بن الورد العبسي ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هُذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

* موضوعات شعر الصعاليك

وتردد في أشعارهم جميعًا صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائيين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال : « أعدي من السُّليك » و « أعدى من الشنفرى » .

* نظام أشبه بنظام الفروسية .

ويعبر بعض الصعاليك عن مثالية خلقية رفيعة إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهي حقا تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولاينهبون سيدًا كريمًا .

وللصعلوك مثاليته في الحياة أو على الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيًا رفيعًا من البر ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقًا منهم عاش سفاحًا لا يرعى عهدًا

* أشهر شعراء الصعاليك

ولا ذمة . ونقف قليلا عند أكثرهم دورانًا على الألسنة ، وهم تأبط شرًا والشنفرى وعروة بن الورد .

أما **تأبط شرًا** فمن قبيلة فهم واسمه ثابت بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمه حرة من فهم تسمى أميمة . واختلف القدماء في تعليل لقبه « تأبط شرًا » فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفا وخرج، فلما سُئلت عنه قالت : تأبط شرًا ومضى لوجهه ، وقيل بل سمعته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جرابًا مليئًا بالأفاعي .

ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي ، وكان صعلوكًا كبيرًا، فخرجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعارًا كثيرة منثورة في كتب الأدب، وتروى له مغامرات مختلفة ، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي .

أما **الشنفرى** فكان من عشيرة الإواس بن الحجر الأزدية اليمنية ، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه – ومعناه الغليظ الشفاه – أن دماء حبشية كانت تجري فيه من قبل أمه، فهي أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُد في أغربة العرب .

ويقال إن الذي روَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يقام لسبيله . وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل ، فيما يقص الرواة، تسعة وتسعين ، انتقامًا لأبيه ، وأخيرًا يرصدون له كمينًا ، فيقع فيه ، ويمثلون به تمثيلا فظيعًا ، يقطعون فيه جسده تقطيعًا ويرمون به للسباع، ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة

واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة . وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعًا كما تلعب في أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، ومما اشتهر له لامية العرب . وهي تصور تصويرًا حيًّا حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين **عروة بن الورد العبسي** ، كان أبوه من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثم كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء أما أمه فكانت من نهد من قضاعة ، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه، إذا أحس في أعماقه من قبلها بعار لا يُمحى يقول :

وما بيَ من عارٍ إخالُ علمتهُ سوى أن أخوالي – إذا نُسبوا – نهدُ

فهي عاره الذي حلت البلية عليه منه ، والذي دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء ، وهي ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذا اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم الدنيا .

وفي خبر أن عبسًا كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا يا أبا الصعاليك أغثنا، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشنفرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهلاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير لغارته من عرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم ، فلا يرعون ضعفا ولا قرابة ولا حقا من حقوق أقوامهم ، وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضربا من ضروب النبل الخلقي ، وكأنها أصبحت صنوًا للفروسية ، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته ، وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعًا في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طبع مرارًا ، وتردد أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التي قدمناها ، وهي معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجابًا شديدًا ، فقد كانت قبيلته تأتم به في خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : «لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم» . ومن المعاني الكريمة في شعره :

إني امـــرؤ عافي إنائيَ شركةٌ ... وأنت امـــرؤٌ عافي إنائِك واحدُ

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بجسمي شحوبَ الحق، والحق جاهدُ

أفرق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسُو قـــراحَ الماء ، والماء بارد

وعروة يعبر عن معنى إنساني رفيع ، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضنى هزيل شاحب اللون، فقال له : إنني يشركني كثيرون من العفاة والسائلين ذوي الحاجة في إنائي أو طعامي ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت

ضامرًا نحيلا ، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين البطين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيرًا ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفيًا بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره .

الخصائص الفنية لشعر الصعاليك

تدور هذه الخصائص حول محورين : الأول موضوعي والثاني فني ويترتب الجانب الفني على الموضوعي بالضرورة كما سيتضح لنا :

- فالقصيدة لديهم تدور حول تجربة معينة من تجاربهم العديدة مما أدى إلى بروز الجانب القصصي من ناحية ، وتوفر قدر من الوحدة الموضوعية من ناحية ثانية ، الأمر الذي ترتب عليه اختفاء التقاليد المعروفة في بناء القصيدة الجاهلية فلم تعد هناك مقدمات طللية أو غزلية أو خمرية ، بل إن الشاعر يعالج موضوعه مباشرة وبإيجاز .
- أدى ارتباط أدبهم بواقع حياتهم الموغلة في القسوة والتشرد تحت أقسى الظروف إلى تصوير نوازعهم الداخلية وأحاسيسهم إزاء هذا الواقع القاسي فبرز النزع إلى شيء من التحليل النفسي وتصوير ردود أفعالهم إزاء هذا النمط الصارم من أنماط العيش .
- فكانت ظاهرة التقرير والارتجال فخلا شعرهم أو كاد من الخيال الذي ينهض على التجريد وحفل بالتشبيهات الحسية قريبة التناول فلم يعمدوا إلى التجويد الفني أو التألق اللفظي .
- تنتمي غالبة قصائدهم إلى الرجز ، ويرجع ذلك إلى طواعية هذا اللون من الشعر للارتجال وسيرورته بين الناس وشعبيته وارتباطه الوثيق بالكر والفر ، والمنازلة ،

فهو ضرب من ضروب الشعر يرتجز به المقاتلون ، وهو ما يعتبر قريبا إلى طبيعة هؤلاء الشعراء .

❖ ومهما يكن من أمر فإن شعر الصعاليك يظل لونا متميزًا من ألوان الشعر الجاهلي في ارتباطه الوثيق بالبيئة الصحراوية التي تعتبر مصدرًا هامًا من مصادر صورهم وأخيلتهم ومعجمهم اللفظي ، وهذا يفسر ما نلمحه من غرابة وخشونة في ألفاظ بعض قصائدهم .

المعلقات

تعريفها

هي قصائد طوال من أحسن الشعر الجاهلي قوة وجمال أسلوب ، وقد غطت شهرتها على ما سواها من الشعر في العصر الجاهلي وتعد صورة ناضجة كاملة لما انتهى إليه شعر الجاهليين في مراحله الأولى .

أهميتها :

تعد المعلقات من عيون الشعر العربي ، كما عد أصحابها وقائلوها من أعظم الشعراء وأنبغهم ، فقد نالوا منزلة عظيمة أتاحت لهم التقدير في كل العصور التي تلت عصرهم، ومن أهميتها أيضًا أنها تعد وسيلة للتعرف على حياة العرب في وقتها ، فهي تعطي صورة واضحة لحياة العرب السياسية والاجتماعية ، فهي تعبر عن هذه الحياة بكل جوانبها ، ولقد أجمع العلماء في كل مجالات المعرفة من علم الدين وعلم الكلام والتاريخ والبلاغة على أنها تعد مصدرًا أساسيًا في دراسة تاريخ العرب في عصر ما قبل الإسلام إذ أنها توضح ما كان عليه الجاهليون في حياتهم ، نأخذ مثالاً لذلك من معلقة زهير بن أبي سلمى ومعلقة عمرو بن كلثوم ، فهما تعطيان وصفًا للمظاهر السياسية والصراعات القبلية والحروب والمنافسة وما يكون من صلح بين القبائل المتصارعة كما بدأ في معلقة زهير وما كان من تحفز وحرب كان على أقل أسباب الصراع كما في معلقة عمرو بن كلثوم . كما تصف معلقة عنترة مظاهر الفروسية والفخر والكرم . وتصف معلقة امرئ القيس حياة اللهو والفروسية .

وهذا كله صورة لما كان عليه العرب في حياتهم العامة ، فإذا قيل إن الشعر ديوان العرب، فإن المعلقات وحدها من الممكن أن تؤدي نفس الدور وتكون هي أيضًا

صورة لحياة العرب . ولأهمية هذه الأشعار ونفاستها في عين الباحثين والشراح، اهتم الجميع بشرحها في كل العصور .

تعدد أسمائها :

(١)

اشتهرت تلك النخبة الرائعة من القصائد « بالمعلقات » وكان لهذا الاسم الغلبة والشيوع ، وقد قيل في سبب تلك التسمية أنها كانت تكتب وتعلق على أستار الكعبة، تعظيمًا لها وتقديرًا لمكانتها ويقول في ذلك البغدادي في كتابه « خزانة الأدب» .

« سميت معلقات لتعليقها على الكعبة ، وقد كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخرًا لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما ذهب » .

(٢)

وهناك من أطلق عليها اسم « السبع الطوال » وذلك حين ذكر أن حمادا الراوية كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، وهو الذي جمع «السبع الطوال» ، وهذا يوضح أن التسمية جاءت من وصفها بما اشتهرت به من طول أبيات قصائدها .

(٣)

وتسمى أيضًا « المذهبات » ويشترك في هذا الرأي ابن عبد ربه وابن رشيق ، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء .

أما ابن عبد ربه فيقول في كتابه « العقد الفريد » :

« إن العرب بلغ كلفهم بالشعر وتفضيلهم له أن عمدوا إلى سبع قصائد تخيروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقوها على أستار الكعبة » .

وعرفت أيضًا « بالسموط » والسمط هو القلادة التي تعلق ، ولعل ذلك راجع أيضًا إلى فكرة تعليقها .

وفي كل هذه التسميات التي اطلقت على ما اشتهر من القصائد باسم المعلقات نرى أنها كلها يقصد بها التعظيم والتفخيم لهذه المجموعة من الشعر ، ففي كل هذه التسميات معنى النفاسة والاختيار والانتخاب .

شعراء المعلقات :

اختلف الرواة والباحثون في عدد المعلقات ، فمنهم من ذكر أنها سبع معلقات، ومنهم من ذكر أنها تسع .. ولكن أشهرها ما قيل أنها سبع وهي تخص من الشعراء :

١ – امرؤ القيس :

وهو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمر الكندي ، وهو من قبيلة كندة في اليمن ، ومعلقته هي أشهر المعلقات وتبدأ بقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ – طرفة بن العبد :

وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن مالك ، من بكر بن وائل ، كان من بيئة شاعرة، فخاله وعمه وأخته من الشعراء ، وتبدأ معلقته بقوله :

لخولة أطـــــــلال ببرقة تهمد تلوح كباقي الـــوشم في ظاهر اليد

٣ – زهير بن أبي سلمى :

وهو من غطفان ، ولم يدرك الإسلام ، وكان هو أيضًا من بيت شعر ، فأبوه شاعر، وابنه كعب هو صاحب مدحة الرسول ﷺ ، والمعلقة تبدأ بقول زهير :

أمـــــــن أم أوفى دمنة لم تكلم بحـــو مـــانة الـــدراج فالمتثلم

٤- لبيد بن ربيعة :

وهو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ، كان فارسًا وعمِّر طويلاً ، وأدرك الإسلام فهجر الشعر وحسن إسلامه ، وأقبل على حفظ القرآن ومعلقته تبدأ بقوله :

ألا هبي بصـــحنك فأصبحينا ولاتـبقي خـمـور الأندرينا

٥- عنترة بن شداد :

هو عنترة بن شداد بن عمرو بن قداد بن مخزوم استعبده أبوه لأن أمه سوداء . فأنكر في أول الأمر بنوته ، ثم اعترف بها حين لمس فيه الشجاعة وبلاءه في الحرب. وتبدأ معلقته بقوله :

هل غادر الشعراء مـــن متردم أم هـل عرفت الدار بعد توهم

٦- الحارث بن حلزة :

هو الحارث بن حلزة ، من بني يشكر بن بكر بن وائل ، وكان سيدًا من سادات بكر ، قال معلقته ارتجالاً في مجلس عمرو بن هند ، وتبدأ بقوله :

آذنـتـنـا بـبيـنـها أسـماء رب ثـــــاويمل منه الثواء

وفي الحقيقة أن المعلقات تدل دلالة واضحة على قدرة الشعراء العرب في العصر الجاهلي، فإن ما اشتهرت به من طول أبياتها تدل على طول نفس الشعراء وتدل على تمكنهم من زمام القوافي وملكة اللغة والتعبير التي يملكونها .

ثانيًا : النثر الجاهلى

تكلمنا عن أحد جناحي الأدب العربى وهو جانب الشعر ، وهناك الجانب الثانى الذى نتكلم عنه وهو جانب النثر ، والمقصود بالنثر ذلك النوع من الكلام الذى يصاغ صياغة فنية جذابة ، أى ما يطلق عليه « النثر الفنى » حيث يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس من يستمعون إليه فيهتم الكاتب بجمال الصياغة وحسن التعبير .

وقد أجمعت الآراء على أن العرب القدماء وقبل الإسلام برعوا فى هذا المجال ، وأنه كان لهم نثر فنى ، وإذا كانت هناك آراء تتباين فى أسبقية الشعر أو النثر فى العصر الجاهلى ، فهناك آراء توضح أن النثر الفنى قد وجد قبل الشعر ، وأنه أسبق منه ودليلهم على ذلك أن النثر أيسر من الشعر ، فهو غير مقيد بالوزن والقافية التى تميز بها النظم الشعرى ، فالمرء يمكن أن يكتب نثراً ، أما نظم الشعر فلا يستطيعه إلا ذو القدرة على نظمه باتباع قواعده من التزام بالقافية والوزن ، ونلمس هذا الرأى عند ابن رشيق حيث يقول :(١)

« وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم فهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به » .

فهذا النص يوضح أن النثر كان كلام العرب الأول ، وأنه كان وسيلة التعبير عن حياتهم ، ولكنه لم يكن كافيًا لإظهار جوانب تاريخهم المتعددة .

---

(١) العمدة ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .

موقع القوة الأدبية ، فقد عرف عنهم قدرتهم الكلامية وتمثل ذلك فى كثير مما بقى من كلامهم الذى نستطيع أن نلقى الضوء على بعض من هذا التراث ممثلاً فيما اشتهر من أدبهم من الحكم والأمثال والمحاورات والخطب وسجع الكهان والوصايا ، وكلها تصل بطبيعة العرب ، فهم فى هذه العصور القديمة كانوا يعبرون عن حياتهم تعبيراً كاملاً ، وكانت نماذج النثر مصورة لما تمر به ظروف معيشتهم وترابطهم بمجتمعهم .

ونوضح الآن كثيراً مما اشتهر عند العرب من نماذج نثرية مما عرف فى أدب العربى النثرى .. ونوضح خصائص كل لون منها .

١- الحكم والأمثال :

اتصف العرب بالحكمة والتدبر ، والرأى الصائب ، وجاءت الحكمة فى أدبهم نتيجة لممارستهم تجارب ومواقف فى حياتهم فكانت خلاصة تجربة سار عليها الكتاب والشعراء ، وعاشت الحكمة معهم واستمرت إلى خلفائهم ولا يخفى أننا فى زماننا هذا بعد تلك القرون الطويلة لا نزال نستخدم بعض الحكم الذى قال بها العرب القدامى ، نأخذ منها العبرة . وتتميز الحكمة بأنها تكون سريعة الانتشار وتستطيع أن تستمر على مدى الأزمان تعبر عما كان مراداً منها ، ولذلك قيل عنها : « أسيرٌ من مثل » ، كما أن الحكمة تعد كأنها فلسفة حياة .

وقد اشتهر بالحكمة من العرب كثيرون ، منهم أكثم بن صيفى ومن حكمه « مقتل الرجل بين فكيه ، آفة الرأى الهوى ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا » .

كذلك كان من حكماء العرب عامر بن الظرب العدوانى ، ومن حكمه : « العقل نائم والهوى يقظان » .

ومن الحكماء أيضًا لقمان ، ومن حكمه : « رب أخ لك لم تلده أمه » ، « آخر الدواء الكى » .

ومن أمثلة الحكمة أيضًا:

العتاب قبل العقاب - كلم اللسان أنكى من كلم السنان - أول الحزم المشورة - اترك الشر يتركك - من مأمنه يؤتى الحذر .

وأهمية الحكمة تتضح فى أنها قول بليغ موجز صائب ، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ، وتتضمن حكمًا مسلمًا تقبله العقول وتنقاد له النفوس والمشاعر مستجيبة له .

أما الأمثال: فهى قول سائر يشتهر بالتداول ويظل على صورته التى بدأ عليها ، فلا يتغير بمرور الزمن . وتستطيع الأمثال أن تعبر بصدق عن أخلاق الأمة وتفكيرها وتقاليدها ، ومن الممكن أن نستخلص عادات وتقاليد مجتمع ما مما ينطلق فيها من أمثال ، فهى تعكس صورة الحياة ، سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية وغير ذلك .

والأمثال إما أن تكون معروفة القائل الأول لها ، وهذا فى أغلب الأحوال يكون حين نحدد مناسبة ذلك القول الذى سار مثلاً ، وإما ألا يعين قائلها حيث يكون مصدرها أناسًا مجهولين من عامة القبائل ، وقد تقال الأمثال على لسان الطير أو الحيوان ، وتسمى الأمثال الفرضية .

ويتميز أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز وروعة التعبير ، وهذا ما يجعلها تسير على الأزمان ، فإيجازها وجمالها يسهلان ذيوعها وانتشارها ، كما أنها فى أحيان كثيرة تعتمد على مظاهر الصنعة من تصوير وسجع حتى تجذب إليها الأسماع والأذهان .

الحكم » وسار مثلاً لما يصح أن يكون عليه من يؤخذ مشورته ويختار لأن يكون حكمًا بين المتخاصمين ، فهو يؤتى ولا يأتى .

ومن الأمثال الفرضية أيضًا التى سارت فى الآفاق المثل القائل : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » ، وقصته تدور على لسان حية نهشت رجلاً فقتلته ، ولما ذهب أخوه ليقتص منها عاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم دينارًا ، ومكثا على ذلك فترة طويلة . ولكن عاد الرجل إلى رغبته الأولى من أخذ الثأر لأخيه بقتل الحية ، وحاول ضربها بفأسه ، لكن الضربة تخطئها ولكنها تركت أثرًا على باب جحرها ، فقطعت الحية عنه ما كانت تعطيه إياه من النقود فأراد الرجل أن يعود إلى ما كان بينهما من ميثاق فقالت : « كيف أعودك وهذا أثر فأسك » . فذهب هذا المثل علامة لمن لا يستمر على عهده .

٢ - الوصـــايا :

الوصية كما يتضح من اسمها توجه بمعنى النصيحة إلى من يهم الموصى . كأن تكون من الأم لابنتها ، أو من الأب لأبنائه ، أو من زعيم لقومه ، ويكون لذلك مناسبته ، فقد تكون عند رحيل أو زواج أو دنو أجل .

وقد تميز العصر الجاهلى بكثرة ما فيه من الوصايا التى تتميز بجمال أسلوبها وقد تتضمن الحكمة والمثل ، كما أنها تميز بحكمة قائلها وحنكته ، فلا يوصى إلا من كانت له تجارب فى الحياة يستطيع بها أن ينقل تجربته إلى من بعده .

والوصية ذات شأن عظيم عند العرب ، فهم يعتبرونها إحدى دعائم حياتهم وحياة من يوجهون الوصية إليهم ، وفى تاريخ الأدب العربى كثير

كما نجد الخبر يتبعه النهى المؤكد فى نحو قولها : « فلا تفش له سراً ، ولا تعصى له أمراً » .

ثم نجد أسلوب الشرط فى قولها : ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان ترحًا ، والاكتئاب إذا كان فرحًا .

وهذا التنويع فى الأسلوب والخطاب له أثره فى النفوس واستثارة العواطف وتنبيه المخاطب إلى ما يقال وما يجب أن يأخذه ويعمل به .

وتبدأ المرأة نصيحتها ببيان أهمية النصيحة وأنها تكون للتذكرة والتنبيه ، وتوضح فيها مكانة ابنتها وعقلها وتدبيرها وجاه أبويها ، ثم تنتقل إلى تصوير مرحلتها القادمة وحياتها الجديدة . وتبين أنها ستجد اختلافًا بين تلك الحياة وما كانت تجده فى بيت أبيها ، لكنها أمام تلك الحياة لابد أن تتأهب لها وتدرك أهميتها .

٣- المحاورات والمنافرات :

عرف العرب بشيوع العصبية بينهم ، وما كان أكثر ما يتنافرون ، وتقوم بينهم مجالس المفاخرة والتحاور حيث يريد كل قوم أن يظهروا مكانتهم ومآثرهم ، وأمام ذلك يظهرون ضعة منافسيهم أو محاوريهم الماثلين أمامهم فى محاوراتهم أو منافراتهم .

وهذا النوع من النثر كثير عند العرب لما كان بينهم من دوافع لذلك فقد اتسع عندهم مجال الحروب والخصومة والتنافس فكان ذلك النوع من الأدب هو المعبر عن تنافسهم ، ويظهر فى محاوراتهم ومنافراتهم تلك التى يحاول فيها كل طرف أن يبين حقه فى الأمر بكل ما يستطيع من مظاهر الحجة والأدلة .

ونلحظ أن المحاور تكون من صفاته اللباقة والمرونة ، وأن يكون ذا كياسة وذكاء وحذق ، يدعم رأيه بالأدلة القاطعة . كما أن الحكم بينهما لابد أن يتجه إلى التوفيق بينهما والصلح ، حتى لا يتمادوا فى إثارة الخلافات والمنازعات ، مثلما حدث فى المثال السابق ، أما إذا لم يستطيع الحكم الصلح بينهما فإن قواعد المنافرة تقضى بأن يكون للمفضل غنم الحكم ، وعلى صاحبه غرم الجعل من الإبل أو غيرها .

٤ - سجع الكهان :

من فنون النثر فى الجاهلية ، هناك نوع كان يتبعه المشتغلون بالكهانة ، وعرف بسجع الكهان ، وقد أثبت فى مجال النثر الفنى حيث كان الكهان يبذلون أقصى ما عندهم من التكلف فى الأسلوب والكثرة من السجع بهدف التأثير على سامعيهم .

ولقد كان للكهان شأنهم فى العصر الجاهلى حيث كان العرب يتجهون إليهم طالبين المشورة فى أكثر أمورهم لما اعتقدوا فيهم من معرفة بالغيب أو تفسير الأحلام ، وكانوا يعتقدون أن لهم رئيا من الجن ينبئهم بالغيب ، ولكن لم يخل الأمر من أن يكون عند بعض هؤلاء الكهان شىء من الفراسة والإلهام الذى يعتمدون فيه على قراءاتهم ومعارفهم ، ونرى مثال ذلك فيما كان العرب ينبئون به بظهور نبىّ جديد ، وما حدث فى حديث ورقة بن نوفل إلى خديجة بنت خويلد زوج الرسول ﷺ وبشرها بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن قصت عليه ما كان من أمر نزول جبريل على الرسول فى غار حراء فقد أخبرها ورقة قائلاً :

« قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وأنه لنبى هذه الأمة »(١) .

(١) السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

فإن ورقة بن نوفل كان من الأحبار الذين قرأوا الكتب السماوية السابقة وعلم منها ما كان من بشارات تدل على مبعث نبي جديد جاء ذلك فى التوراة والإنجيل .

وقد تدخل الكهان بسجعهم فى كل أمور العرب فهم يحذرونهم من الحرب ويفسرون لهم ما يلبس عليهم فى أمورهم الخاصة والعائلية ، فمن أمثلة ذلك ما قالته زبراء كاهنة بنى رئان حين حذرت قومها من غارة عليهم فقالت :

« واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق والنجم الطارق ، والحزن الوادق إن جر الوادى ليأدو خثلا ، ويحرق أنياب حثلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه فعلا »(١) .

ولا يختلف الأمر فى الكهان بين امرأة ورجل ، وإنما كان الاعتقاد فيهن وفيهم كبير .

٥ - ثم نتكلم الآن عن أبرز ألوان النثر فى العصر الجاهلى وفى كل العصور ذلك هو فن الخطابة ، وقد كان لهذا الفن المجال الواسع فى العصر الجاهلى ، فقد كانت الخطابة وسيلة التعبير عن آراء الحكام وشيوخ القبائل خاصة حين نذكر أن نظام القبيلة كان أساسه العصبية وما يرتبط بها من ابراز الأفكار وما يكون من مناظرات ومنافرات كانت تتطلب أن يقوم خطباء العرب ببيان أفكارهم وآرائهم ، فكانت الخطابة مزدهرة ازدهارا كبيراً حيث كان العرب فى حروبهم وسلمهم يستعينون بالخطابة ، فمن ناحية الحرب كان العرب يكثر بينهم النزاع والصراع وكانوا يتمسكون

(١) الأمالى ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

بعزتهم وأنفتهم ويتباهون بالأنساب ، فكانت الخطابة إحدى الوسائل التى يستطيعون بها أن يعبروا عن هذه الأمور .

وأما فى وقت السلم فقد كانت الخطابة أداة كبيرة توضح مقدرة العرب الكلامية ، فهم قوم ذو فصاحة وبيان ومقدرة على القول ، ومن صور ذلك أنهم كانوا كثيراً ما يرتجلون القول ويستطيعون أن يصلوا إلى مرادهم بكل قوة ويسر .

وممن اشتهروا بالخطابة فى الجاهلية :

قس بن ساعدة - اكثم بن صيفى التميمى - عمرو بن معبديكرب - حاجب بن زرارة التميمى - كعب بن لؤى - هاشم بن عبد مناف - عبد المطلب بن هاشم .

ولقد تعددت ألوان الخطابة فى العصر الجاهلى ، فكان منها ما يعد دينياً أو اجتماعياً . ومن نماذج هذه الخطب :

- خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، ذلك الذى عرف بالفصاحة والبلاغة ، وقد عُدَّ خطيب العرب فى وقته ، ومن خطبه :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، سحائب تمور ، ونجوم تغور ، فى فلك يدور ، ويقسم قس قسماً أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ » .

مميزات الخطابة الجاهلية :

(١) - تتسم بالجزالة والفصاحة ، وذلك نابع من سلامة الفطرة التى وجد عليها العرب فى هذا العصر ، فهم أمة اتسمت بقوة الأسلوب وسلامة التعبير وفصاحة اللسان .

(٢) - تتناسب الألفاظ فى الخطب مع الموضوع ، فهى تكون سهلة إذا كان الكلام يقصد به إثارة النفوس فى موضوعات هادئة كما رأينا فى خطبة قس بن ساعدة ، أو خطبة أبى طالب ، أما إذا كانت فى مجال إثارة حمية أو دعوة إلى الحرب ، فالأمر يختلف ، إذ تكون الخطبة ذات ألفاظ تتميز بالجرس القوى والخشونة .

(٣) - يكثر فى الخطب الجاهلية السجع حتى تؤثر فى النفس وتنبه الأذهان

(٤) كما أنها تتميز بقصر الجمل ويكثر فيها الحكم والأمثال ، مما يكون له التأثير القوى وحرارة العاطفة .

ويهمنا هنا أن نقول فى ختام ذلك التصوير لأدب العصر الجاهلى أن الأدب جاء مصوراً لكل مظاهر الحياة الجاهلية يشترك فى ذلك الشعر والنثر ، ووضح فى أدب هذا العصر كل معانى القوة والبراعة والتمكن من اللغة العربية التى عرف بها العرب وكانت سمة قوة لهم .